

## وزير الخليفة الفاطمي



كان شيركوه قد استعد للحملة على مصر أحسن استعداد ، واختار رجاله واعوانه من الرجال المدربين والابطال الأشداء ، واستصحب ابن اخيه صلاح الدين ، على كره منه هذه المرة ، وقد بلغ عدد جنوده الفين من الفرسان وستة الاف من المرتزقة . وكان الغرض من الحملة في الظاهر نجدة الخليفة العاضد ، ولكن قائدها كان قد اعتزم الاستيلاء على مصر مهما كلفه الامر . فلما عاد اموري من حيث أتى ، أقبل شيركوه فخيم بعسكره امام القاهرة ، وتوافد سكانها لتحيته وشكره على انقاذهم من الخطر الذي كانت يهددهم ، وذهب شاور لاستقبال القائد المنقذ فيمن ذهب من الاهلين ، وتظاهر الرجال بنسيان الماضي ، الا ان كلا منهما كان يضم الحقد للاخر ويبيت له السوء . وقد فكر شاور بدعوة ضيفه واعوانه الى مأدبة يدس لهم فيها السم فيفتك بهم جميعاً ، كما فكر شيركوه بكيدة تذهب بخصمه ، وفي كتاب الروضتين ان الخليفة العاضد قد زاره في خيمته متنكراً واهاب به الى قتل شاور لانقاذ البلاد من جوره .

وفي ذات أصيل أقبل شاور لزيارة شيركوه ، فقيل له انه قد

توجه الى ضريح الامام الشافعي . فقال : غضي اليه . فسايره  
صلاح الدين وبعض الامراء ، ثم نزعوه عن فرسه و كباوه ، وارساوا  
للخليفة فاخبروه بما صنعوا ، فامر بأن يقطع رأسه .

وما كاد يقضى على شاور حتى استدعى الخليفة الفاطمي شير كوه  
الى قصره ، وخلع عليه خلة الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير  
الجيوش ، فانتقل الى مقر شاور بدار الوزارة ، وقبلة أعوانه  
المناضب العالية ، وتمت له بذلك السيطرة على مصر دون اي عناء .

بيد أن الحياة لم تفسح لشير كوه مجالاً للتمتع بالمجد الذي  
صار اليه ، اذ توفي في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤ ( ١١٦٩ )  
بعد تقلده منصب الوزارة ببضعة اسابيع . فخلفه على ذلك المنصب  
يوسف صلاح الدين ابن اخيه ومساعدته الأول ، الذي رافق الحملة  
الشامية كارهاً لزهده في الاستيلاء على مصر كما قال بعض المؤرخين ،  
او لا يثاره الدعة والراحة كما قال آخرون ، او لشدة مالاقي من  
العناء في حصار الاسكندرية في الحملة الثانية وهو الأرجح ، فاذا به  
يتولى الوزارة وهو بعد في الثانية والثلاثين من عمره ، ولكنه قد  
تدرب وهو في تلك السن الباكرة على الحروب ، وأفاد من  
دروس الحياة ، واظهر من الكفاية والمقدرة ، ما جعله أهلاً لذلك  
المنصب ، وجعل الخليفة الفاطمي يختاره له دون غيره من امراء  
نور الدين ، رغم تسابقهم الى هذا المركز الخطير وعودة اكثرهم الى  
الشام احتجاجاً على اسناده الى صلاح الدين . الا ان ابن الاثير  
يقول : « وكان الذي حمل العاضد على اختياره ، ما كان يظنه فيه  
من الضعف لقله رجاله وضعف عسكره ، فظن انه اذا ولاه يكون

مستضعفاً فيحكم عليه ولا يجسر على مخالفته .  
وكانت العادة قد جرت بان يطلق على الوزير لقب كبير يعرف  
به ، فسمي الوزير الجديد « الملك الناصر ابو المظفر صلاح الدين  
والدين يوسف بن ايوب » . وفي صبح الاعشى ان العاضد كتب اليه  
في طغرة العهد بالوزارة : « هذا عهد امير المؤمنين اليك ، وحجته  
عند الله عليك ، فاوف بعهدك ، وخذ كتاب امير المؤمنين بيمينك .  
ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن اسوة ، ولمن  
بقي بقربنا أعظم سلوة . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون  
علواً في الارض ولا فساداً ، والعاque للمتقين » .  
تولى الوزير الشاب ذلك المنصب الذي تحيط به الفتن ويتطلع  
اليه كل امير على شيء من القوة والبأس ، على انه عبء ينهض به  
ورسالة يؤديها وليس متعة ولهواً ، وقد رأى بحكمته المشرقة  
وخلقه الرفيع ، ان خير ما يثبت به دعائم حكمه العدل بين الناس  
فعاملهم بما عرف به من كريم السجايا ونبيل الصفات ، ولم يتعرض  
للمذهب الشيعي الذي اعتنقوه في عهد الفاطميين وقد استمر نجواً  
من قرنين ، واكتفى بذكر اسم نور الدين زنكي على المنابر بعد  
اسم الخليفة الفاطمي . على ان احترام عقائد الناس شيعيين كانوا  
او سنين ، ومسيحيين او مسلمين ، كان نزعة اصيلة في نفسه ،  
وسجية رفيعة من سجاياه ، وعرفت الطوائف المختلفة في عهده  
أقصى الحرية ، واحبه الاقباط محبة شديدة ، حتى ليذهب احمد زكي  
باشا الى انهم قد وضعوا صورته في كنائسهم ، ويستشهد على ذلك  
بادلة كثيرة منها ان الشاعر عبد المنعم الاندلسي زار مصر في ذلك

الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين فنظم قصيدة طويـلة في هذا المعنى منها هذا البيت :

فيحطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأفاقم  
وقد رفع صلاح الدين المظالم عن المصريين ، وخفف اعباء  
الضرائب التي كانت ترهقهم ، وأصدر بهذا الصدد مرسوماً قرىء  
على المنابر يدل دلالة واضحة على الشدة التي كان يستعملها الولاة في  
جباية المكوس ، وبما جاء فيه قوله : « وخرج أمرنا بمساحة اهل  
القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين اليها والى ساحل المقسم  
( المقس ) والمنية ، بابواب المكوس ، صادرها وواردها . فيرد  
التاجر ويسفر ، ويفيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، برأ  
وبجرأ ، مركباً وظهراً ، سرأ وجهراً ، لا يُخسَل ما شده ، ولا  
يحاول ما عنده ، ولا يُكشف ما ستوره ، ولا يُسأل عما أورده  
وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ  
منه طعمه ، ولا يستباح له حرمة »

وقد اكسبت هذه السيرة السمحة العادلة صلاح الدين محبة  
الشعب واينارهم اياه ، ولكنها لم تصرف عنه كيد الامراء الموتورين  
والقواد الطامعين الذين ما فتئوا منذ اللحظة الاولى يتآمرون على  
حياته ، كل منهم يريد ان يقصيه عن كرسي الحكم ليحل محله فيه .  
وما لبث مؤتمن الخلافة الحصي الاسود جوهر ان خرج بفكرة  
التخلص من الوزير الدخيل الى حيز العمل ، فكتب الى الفرنجة  
بالزحف على مصر ، ووعدهم بانهم ان وصلوا وخرج صلاح الدين  
اليهم ، قام بجموعه فضربه من خلف ، بينا تناجزه جيوشهم وجهاً

لوجه ، وفي هذا القضاء الحتم . وقد وضع مؤتمن الخلافة هذا الكتاب داخل حذاء جديد وأعطاه الى احد رجاله لينطلق به الى ملكة الفرنجة ، فوقع الحذاء في يد رجل من اتباع صلاح الدين فاطلع على الرسالة وسلمها اليه ، فتجاهل الوزير الامر ولبت يتحين الفرص للايقاع بخصمه ، حتى خرج يوماً الى قصر له خارج القاهرة فارسل اليه من قتله . قال عماد الدين الكاتب: « فهاج السودان وثاروا ، وكانوا اكثر من خمسين الفاً ، وكانوا اذا قاموا على وزير قتالوه واجتاحوه واذلوه واستباحوه » فهب صلاح الدين يردهم عن قصره ، وعمد اخوته الى محلتهم المنصورة فاحرقوها ، فلما بلغهم النبأ تفرق شملهم وهرعوا الى تلك المحلة يتفقدون نساءهم واطفالهم ، فاخذ الملك الناصر عدداً كبيراً منهم فقتلهم ، وطارداً اخسوه شمس الدين طوران شاه من بقي منهم الى الصعيد ، فظل الوجه القبلي من مصر طوال ست سنوات مسرحاً لفتن متواصلة يديرها اعداء صلاح الدين من امراء الفاطميين ويذهب ضحيتها السودانيون الناقمون عليه .

ولم يكن مركز صلاح الدين من ناحية نور الدين زنكي بأقل اضطراباً وحرَجاً مما كان عليه من ناحية الامراء الفاطميين . فقد كان الحاكم الشاب يريد الاستقلال بمصر ، وكان نور الدين يستشعر منه ذلك ويخشاه ، فيرسل اليه ان يغير خطبة الجمعة في المساجد ويجعلها باسم الخليفة العباسي بدل الخليفة الفاطمي ، لتكون له عليه سلطة شرعية واضحة ، فيستعمله في ذلك لانه لا يريد اغضاب المصريين ، ويؤكد له ان اسمه يُذكر على منابر مصر مقروناً

باسم الخليفة الفاطمي وتلك خطوة كبرى نحو هدفه ، فكان يأمن بذلك جانب نورالدين ، ويجمع في الوقت نفسه كلمة المصريين حوله ليكونوا عدته في تحقيق الاحلام التي يريد .

وقد خدم الحظ صلاح الدين مرة اخرى ، بعد ان خدمه باحتلال مصر على اهون سبيل وموت عمه موطداً له اسباب حكمها ، اذ لم يكذب ثورة السودانين ، ويتخذها مبرراً لابعاد الامراء المصريين عن مناصب الدولة واحلال قومه ورجال بيته محلهم ، وتعيين الخصي الابيض بهاءالدين قراقوش قيماً على القصر بدلا من المؤمن القديم ، حتى قام اموري ملك القدس وقد هاله ان يمتد ملك نورالدين الى مصر ، فاستنجد ببيزنطية التي تشاركه النعمة عليه ، وزحف بجيشه الى دمياط يريد احتلالها ، واذا بصلاح الدين يسبقه اليها بجنوده ومعداته ، فيصدّه عنها ويهزمه هزيمة شنعاء ، ثم يصل الاسطول البيزنطي الى الشواطىء المصرية وقد عانى في الطريق اليها من المصاعب ما اضعف من قوته وساعد في القضاء عليه ، ويقول ستانلي لين بول : « ان زوبعة بحرية شديدة هبت فحطمت ما بقي من اسطول البيزنطيين فمات كل من كان عليها ، وطفقت جيشهم على شواطىء البلاد التي كانوا قد جاؤوا لفتحها » .

وانما قلنا ان الحظ قد خدم صلاح الدين في هذه المرة ايضاً لان هذه الموقعة قد وطدت مركزه وعززت مكانته لدى المصريين ، اذ رأوه يخرج منها مكلاً بالظفر وقد ردت خطر الفرنجة عن وطنهم ثم تعقبهم الى تخوم مملكتهم ، واستولى على مدينة العقبة مفتاح البحر الاحمر وطريق الحجاج المساهين الى مكة ، بحيث ايقنوا انهم سيكونون

آمنين على انفسهم وارزاقهم في عهد هذا الوزير الباسل لقدرته على صد العدوان عن بلادهم بحكمته وشجاعته الفريديتين .

اراد صلاح الدين ان يتقدم بعد ذلك خطوة جديدة نحو تثبيت حكمه في مصر ، ونحو تحقيق الاحلام التي اخذت تراوده في توحيد بلاد العرب وجمع كلمة المسلمين ، فأخذ يعمل على تحويل الناس شيئاً فشيئاً عن المذهب الشيعي الى مذهبه ، وهو مذهب السنة . قال ابن الاثير : « وكان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يجلس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية ايضاً ، وعزل القضاة المصريين وكانوا شيعة ، واقام قاضياً شافعيّاً في مصر فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد » ثم ابنتى المدرسة القمحية وجعلها خاصة بالمالكية ، وانشأ مدرسة للحنفية في دار الوزير البطاحي .

وكان نورالدين ما يفتأ يلحّ عليه بتغيير خطبة الجمعة وجعلها باسم الخليفة العباسي ، بل كانت بلاد العرب التي تطمع بامتداد الوحدة القوية التي كانت لها في ظل الحكم العربي تتطلع كلها الى ذلك الامر معلقة عليه آمالاً كباراً ، ولكن صلاح الدين لم يكن يريد ان يتعجل الامور قبل اوانها ، وكان يبغى ابقاء العاضد حليفاً له اذا اختلف ونورالدين ، فظل يرجىء ذلك من شهر الى شهر ومن يوم الى آخر ، حتى مرض الخليفة الفاطمي واشرف على الموت ، فجمع الناصر قومه واستشارهم في الأمر كشأنه كلما ازمع على امر جليل ، فنصحوه بالاقدام عليه ، وتعهد عالم منهم ان يقوم به بنفسه ، وبادر لفوره فذهب الى المسجد وخطب للخليفة العباسي المستضيء

بإمر الله وكان قد خلف أباه المستنجد بالله منذ ستة شهور ، وكانت  
ذلك في اول جمعة من محرم سنة ٥٦٧ ( ١٠ ايلول سنة ١١٧١ ) .  
وقال ابن الاثير ان الناس قد قابلوا هذا الحدث الخطير بهدوء عجيب  
« ولم ينتطح فيه عنزان ! »

وكان مرض العاضد يشتد ، فأمر صلاح الدين اتباعه ان يكتبوا  
الامر عنه قائلاً لهم : « ان عوفي فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي ان  
ننجمه بمثل هذه الحادثة قبل موته . » وفي بعض الروايات  
ان العاضد علم بالخطبة لغيره فاغتم ومات . ومهما يكن من  
امر ، فان الخليفة لم يبطله ان مات في الشهر عينه ، وانقرضت  
بعوته الدولة الفاطمية التي تركت آثاراً عظيمة في الحضارة الاسلامية  
واصبح صلاح الدين الايوبي السيد المطلق في مصر .